المشكلة

ـ ٢ ـ

لمَّا فرغت من مقالات (المجنون)[1] وأرسلت الأخيرةَ منها ؛ قلت في نفسي : هذا الآخِرُ هو الآخِر من المجنون وجنونه ، ومن الفكر في تخليطِه ، ونوادره ، غيرَ أنَّه عاد إليَّ أخلاطاً ، وأضغاثاً ، فكأنِّي رأيته في النَّوم يقول لي : اكتب مقالاً في السياسة . قلت : مالي وللسِّياسة وأنا « موظفٌ » في الحكومة ، وقد أخذت الحكومة ميثاقَ الموظفين : لما عرَفوا من نقدٍ ، أو غميزةٍ ليكتُمُنَّه ، ولا يُبيِّنونه ؟ فقال : هذه ليست مشكلةً ، وليس هذا يصلح عذراً والمخرَج سهلٌ ، والتَّدبير يسيرٌ ، والحلُّ ممكنٌ . قلت : فما هو ؟

قال : اكتب ما شئت في سياسة الحكومة ، ثمَّ اجعل توقيعَك في آخر المقال هكذا : « مصطفى صادق الرَّافعي : غير موظف بالحكومة » . . . . .

فهذه طريقة من طرق المجانين في حلِّ المشاكل المعقَّدة : لا يكون الحلُّ إلا عقدةً جديدةً يتمُّ بها اليأس ، ويتعذَّر الإمكان ، وهي بعينها طريقة ذلك الطَّائر الأبله ؛ الَّذي يرى الصَّائد ، فيغمِّض عينَه ، ويلوي عنقه ، ويخبىء رأسَه في جناحه ، ظنّاً عند نفسه : أنَّه إذا لم يرَ الصَّائد ؛ لم يره الصَّائد ، وإذا توهَّم : أنَّه اختفى ، تحقَّق : أنَّه اختفى ، وما عمله ذاك إلا كقوله للصَّياد : إنِّي غير موجودٍ هنا . . . على قِياس « غير موظفٍ » . . .

* * *

وقد كنت استفتَيْتُ القرَّاء في (المشكلة) وكيف يتَّقي صاحبُها على نفسه ، وكيف تصنع صاحبتها ؛ فتلقَّيتُ كتباً كثيرةً أهدت إليَّ عقولاً مختلفةً ، وكان من عجائب المقادير أنَّ أوَّل كتابٍ ألقي إليَّ منها ـ كتاب مجنونٍ « نابغة » كنابغة القرن

---

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القرَّاء في آخره ، انتظرنا مدّة ، وكتبنا في هذه المدة مقالات (المجنون) فانظرها في الجزء الثاني . (ع) .
قلت : وحديث هذا المجنون في « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

العشرين ، بعث به من القاهرة ، وسمَّى نفسه (المصلح المنتظر) وهذه عبارتُه بحرفها ورسمها ، كما كتبت ، وكما تُقرأ : فإنَّ نشرَ هذا النَّص كما هو ، يكون أيضاً نصّاً على ذلك العقل كيف هو . . .

قال : إنَّ هذا الكونَ تعبت فيه آراءُ المصلحين ، وكُتبُ الأنبياء زُهاء قرونٍ عديدةٍ ، ودائماً نرى الطَّبيعة تنتصر . ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه ، والطَّير كيف يركن إلى عشِّ حبيبته ، إلا الإنسان ، ولقد تفنَّن المشرِّعون في أسماء : العادات ، والتَّقاليد ، والحمِيَّة ، والشَّرف ، والعِرض ، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادَّة ، فما بالكم بسلطان الرُّوح ؟

ورأيي لهذا الشَّابِّ ألا يطيع أباه ، ولو ذهب إلى ما يسمُّونه الجحيم ؛ إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ، ويتمتَّع بالحبِّ الواحد المقدَّر له ما دام قلبه اصطفاها ، وروحه تهواها ، ولو تركته بعد سنين قليلةٍ لأيِّ داعٍ من دواعي الانفصال[1] .

وهذا ليس مجرَّد رأي مجرِّب ، وإنَّما هو رأي أكبر عقلٍ أنجبته الطَّبيعة حتَّى الآن . . ! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه ، والدَّليل أنَّ هذا المقال سيشار إليه في مجلَّة (الرِّسالة) وهذا الرَّأي سيُعمل به ، وصاحب هذا الرَّأي سيخلد في الدُّنيا ، وسيضع الأسس والقوانين الَّتي تصلح لبني الإنسان مع سموِّ الرُّوح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادةُ المال .

« إنَّ الإنسان يحيا حياةً واحدةً ، فليجعلها بأحسن ما تكون ، وليمتِّع روحه بما تمتَّع به جميع المخلوقات سواه ، وإلى الملتقى في ميدان الجهاد » .

« المصلح المنتظر » انتهى . .

وهذا الكتاب يحلُّ (المشكلة) على طريقة « غير موظف » . . . فليعتقد العاشق : أنَّه غيرُ متزوِّج ، فإذا هو غير متزوِّج ، وإذا هو يتقلَّب فيما شاء ، وتسأل الكاتبَ : ثمَّ ماذا ؟ فيقول لك : ثمَّ الجحيم .

وإنَّما أوردنا الكتابَ بطوله ، وعرضه لأنَّنا قرأناه على وجهين . فقد نبهتنا عبارة « أكبر عقل أنجبته الطَّبيعة حتى الآن » إلى أنَّ في الكلام إشارةً من قوَّةٍ خفيَّة في

---

(١) « الانفصال » : الطلاق .

الغيب ، فقرأناه على وحي هذه الإشارة ، وهذْيها ، فإذا ترجمة لغةِ الغيب فيه .

« ويحك يا صاحبَ المشكلة ! إذا أردت أن تكون مجنوناً ، أو كافراً بالله ، وبالآخرة فهذا هو الرَّأي . كن حيواناً تنتصر فيه الطَّبيعة والسَّلام ! » .

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير في أوَّل كتابٍ ألقي إليَّ . أمَّا العجيبة الثَّانية فإن آخر كتابٍ تلقَّيتُه كان من صاحبة المشكلة نفسها ، وهو كتابٌ آيةٌ في الظَّرف ، وجمال التعبير ، وإشراقِ النَّفس في أسرارها ، يَمورُ[1] مَوْرَ الضَّباب الرَّقيق من ورائه الأشعَّة ، فهو يَحجبُ جمالاً ؛ ليُظهِر منها جمالاً آخر ، وكأنَّه يعرض بذلك رأياً للنَّظر ، ورأياً للتَّصوُّر ، ويأتي بكلام يُقرأ بالعين قراءةً ، وبالفكر قراءةً غيرها ، ولفظها سهلٌ ، سهلٌ ، قريبٌ ، قريبٌ ؛ حتَّى كأنَّ وجهها هو يُحدِّثك ، لا لفظها ومادَّةُ معانيها من قلبها ، لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مقفَلٌ على خواطره وأحزانه ، مُستَرسِلٌ إلى الإيمان بما كتِبَ عليه استرساله إلى الإيمان بما كتِب له ، فما به غرورٌ ، ولا كبرياء ، ولا حِقدٌ ، ولا غضبٌ ، ولا يَكرُثه[2] ما هو فيه .

ومن نكد الدُّنيا : أنَّ مثلَ هذا القلب لا يُخلقُ بفضائله إلا ليُعاقبَ على فضائله ، فغلظة النَّاس عقابٌ لرقَّته ، وغدرُهم نكايةٌ لوفائه ، وتَهوُّرهم ردٌّ على أناته ، وحُمقهم تكديرٌ لسكونه ، وكذبهم تكذيبٌ للصِّدق فيه .

وما أرى هذا القلب مأخوذاً بحبِّ ذلك الشَّابِّ ، ولا مُستهاماً به لذاته ، وإنَّما هو يتعلَّق صُوَراً عقليَّةً جميلة كان من عجائب الاتِّفاق أن عَرَضت له في هذا الشَّاب أوَّل ما عرضت على مقدارٍ ما ، وسيكون من عجائب الاتِّفاق أيضاً أن يزول هذا الحبُّ زوال الواحد ؛ إذا وُجدت العشرة ، وزوال العشرة إذا وُجدت المئة ، وزوال المئة إذا وجد الألف .

وبعد هذا كلِّه ؛ فصاحبة المشكلة في كتابها كأنَّما تكتب في نقد الحكومة على طريقة جعل التَّوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » . . . وهي فيما كتبت كالنَّهر ؛ الَّذي يتحدَّر بين شاطئيه مدَّعياً : أنَّه هارب من الشاطئين مع أنَّه بينهما

---

(١) « يمور » : يتحرك ، ويتدافع .
(٢) « يكرثه » : يكرثه الغم : يشتدّ عليه ، ويثقله .

يجري : تحبُّ صاحبها ، وتلقاه ، ثمَّ هي عند نفسها غير جانيةٍ عليه ، ولا على زوجته . . . فليت شِعري عنها ، ما عسى أن تكون الجناية بعد زواج الرَّجل غير هذا الحبِّ وهذا اللِّقاء ؟

ونحن معاً كأرسطاطاليس مع صديقه الظَّالم حين قال له : هَبنا نقدِرُ على محاباتك[١] في ألا نقول : إنَّك ظالم ، هل تقدر أنت على ألا تعلم : أنَّك ظالم ؟

ورأيها في (المشكلة) أن ليس من أحدٍ يستطيع حلَّها إلا صاحبها ، ثمَّ هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقةٍ من طريقتين ، فإمَّا أن تكون ضحيةَ أبيها ، وأبيه ـ تعني : زوجته ـ ضحيته هو أيضاً ، ويستهدف لما يناله من أهله ، وأهلها ، فيكون البلاء عن يمينه ، وشماله ، ويكابد من نفسه ، ومنهم ما إنَّ أقلَّه ليذهب براحته وينغِّص عليه الحبَّ ، والعيش ، (قالت) : وإمَّا أن يضحِّيَ بقلبه ، وعقله ، وبي . . .

وهذا كلامٌ كأنَّها تقول فيه : إنَّ أحداً لا يستطيع حلَّ المشكلة إلا صاحبها ، غير مستطيعٍ حلَّها إلا بجنايةٍ يذهب فيها نعيمُه ، أو بجنونٍ يذهب فيه عقلُه . فإنْ حلَّها بعد ذلك ؛ فهو أحدُ اثنين : إمَّا أحمق ، أو مجنون ، ما منهما بدٌّ . . .

ولسان الغيب ناطقٌ في كلامها بأنَّ أحسن حلٍّ للمشكلة هو أن تبقى بلا حلٍّ ، فإنَّ بعض الشَّرِّ أهون من بعضٍ .

* * *

والعجيبة الثالثة : أنَّ « نابغة القرن العشرين[٢] » جاء زائراً بعد أن قرأ مقالات (المجنون) ، فرأى بين يديَّ هذه الكتب ؛ الَّتي تلقيتها ، وأنا أعرضها ، وأنظر فيها ؛ لأتخيَّر منها ، فسأل ، فخبَّرته الخبر ؛ فقال : إنَّ صاحب هذه المشكلة مجنونٌ . . . لو امتحنوه في الجغرافيا ، وقالوا له : ما هي أشهر صناعة في باريس ؟ لأجابهم : أشهر ما تعرف به باريس : أنَّها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتي . . .

قلت : فكيف يرتدُّ هذا المجنون عاقلاً ؟ وما علاجُه عندك ؟

قال : وَجِّهْ في طلب (ا . ش[٣]) فيجيء ، فلمَّا جاء ؛ قال له اكتب : جلس

---

(١) « محاباتك » : حاباه : مال إليه منحرفاً عن الحقِّ .
(٢) هو لقب المجنون ، فانظر مقالاته في الجزء الثاني . (ع) .
(٣) هو الأديب أمين حافظ شرف ، ويأتي له ذكرٌ في مقالات « المجنون » . (س) .

« نابغة القرن العشرين » مجلسَه للإفتاء في حلِّ المشكلة ، فأفتى مرتجلاً :

« إنَّ منطق الأشياء ، وعقليَّة الأشياء صريحان في أنَّ مشكلة الحبِّ ؛ التي يَعْسرُ حلُّها ، ويتعذَّر مَجاز العقل فيها ليست هي مشكلة هذا العاشق ، أكرهوه على الزَّواج بامرأةٍ يحملها القلب ، أو لا يحملها ، وإنَّما تلك هي مشكلة أمبراطور الحبشة يريدون إرغامَه أن يتزوَّج إيطاليا ، ويذهبون يَزِفُّونها إليه بالدَّبابات والرَّشاشات ، والغازات السامة .

« ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذي يعمل عمل العقل ، إذاً لكانت مَجاري عقله مُطَّردةً في رأسه ، فانحلَّت مشكلته بأسبابٍ تأتي من ذات نفسها ، أو ذات نفسِه ؛ غير أنَّ في رأسه عقلُ بطنِه ، لا عقل الرَّأس ، كذلك الشَّره البخيل ؛ الَّذي طبخ قِدْراً ، وقعد هو وامرأته يأكلان ، فقال : ما أطيب هذه القِدْر لولا الزُّحام . . ! قالت امرأته : أيُّ زحام هاهنا ؟ إنَّما أنا ، وأنت ! قال : كنت أحبُّ أن أكون أنا والقدر فقط . . .

« فعقل النَّهِم في رأس هذا ، كعقل الشَّهوة في رأس ذاك ؛ كلاهما فاسد التَّقدير ، لا يعملُ أعمالَ العقول السَّليمة ، ويريد أحدُهما أن تَبطُلَ الزَّوجة من أجل رطلٍ من اللَّحم ، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك في رطلٍ من الحبِّ . .

« وإذا فسد العقلُ هذا الفسادَ ابتلي صاحبه بالمشاكل الصِّبيانيَّةِ المضحكة : لا تكون من شيءٍ كبيرٍ ، ولا يكون منها شيءٌ كبيرٌ ، وهي عند صاحبها لو وُزِنَتْ ؛ كانت قناطير من التَّعقيد ، ولو كِيلتْ ؛ بلغت أرادب[1] من الحيرة ، ولو قِيسَت امتدَّت إلى فراسخَ من الغموض .

« هاتان المرأتان : (الحبيبة ، والزَّوجة) ، إمَّا أن تكونا جميعاً امرأتين ، فالمعنى واحدٌ ، فلا مشكلة ؛ وإمَّا ألا تكونا امرأتين ، فالمعنى كذلك واحدٌ ، فلا مشكلة ، وإمَّا أن تكون إحداهما امرأةً ، والأخرى قرْدةً ، أو هِرْدةً ، وهاهنا المشكلة . (حاشية) الهردة : من أوضاع نابغة القرن العشرين في اللغة ، ومعناها : الأنثى ليست من إناث الأناسيِّ ، ولا البهائم . . .) .

« فإن زعم العاشقُ : أن زوجتَه قِردةً ؛ فهو كاذبٌ ، وإن زعم أنَّها الهِرْدة ؛ فهو

(١) « أرادب » : جمع إردب ، وهو مكيالٌ ضخمٌ يسع أربعةً وعشرين صاعاً .

أكذَب ؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كلِّ المجانين ، ففي مخِّه موضعٌ أفرَط عليه الشُّعور ، فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ في الرأي ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعَمى عن الحقيقة ؛ وجعل زوجتَه المسكينةَ هي مَعْرِض هذا العمى ، وهذا الخطأ ، وهذا الفساد ، ولا عيبَ فيها ، لأنَّها من زوجها كالحقيقة الَّتي يتخبَّط فيها المجنون مدَّةَ جنونه ، فتكونُ مَجْلى هَذَيَانه ومعرِضَ حماقاتِه ، وهي الحقيقة غير أنَّه هو المجنون .

« فإن كانت هذه الحقيقة مسألةً حسابيَّة ؛ استمرَّ المجنون مدَّةَ جنونه يقول للنَّاس : خمسون ، وخمسون : ثلاثةَ عشر ، ولا يصدِّق أبداً : أنَّها مئة كاملةٌ . وإن كانت مسألةً علميَّةً ؛ قضى المجنون أيَّامه يُشعل التُّراب ؛ ليجعله باروداً يتفجَّر ، ويتفرقع ؛ ولا يدخل في عقله أبداً : أنَّ هذا ترابٌ منطفىءٌ بالطَّبيعة . وإن كانت مسألةً قلبيَّةً ؛ استمرَّ المجنون يزعم : أنَّ زوجتَه قِردةً ، أو هِرْدةً ، ولا يشعر أبداً أنَّها امرأةٌ .

« فإنْ صحَّ : أن هذا الرَّجلَ مجنونٌ ؛ فعلاجُه أن يُربَط في المارستان ، ثمَّ يجيء أهلُه كلَّ يوم بزوجته ، فيسألونه : أهذه امرأةٌ ، أم قردةٌ ، أم هردةٌ ؟ ثمَّ لا يزالون ، ولا يزالُ حتَّى يراها امرأةً ، ويعرفها امرأتَه ، فيقال له حينئذ : إنْ كنت رجلاً فتخلَّق بأخلاق الرِّجال .

« أمَّا إن كان الرَّجل عاقلاً مميِّزاً صحيحَ التَّفكير ، ولكنَّه مريضٌ مرض الحبِّ ؛ فلا يرى (النَّابغة) أشفَى لدائه ، ولا أنجعَ فيه ، من أن يَسْتَطِبَّ بهذه الأشفِيَةِ واحداً بعد واحدٍ ؛ حتَّى يَذْهبَ سَقامه بواحدٍ منها ، أو بها كلِّها :

« الدَّواء الأوَّل : أن يجمعَ فكرَه قبل نومه ، فيحصرَه في زوجته ، ثمَّ لا يزال يقول : زوجتي ! زوجتي ! حتَّى ينام ، فإنْ لم يذهب ما به في أيامٍ قليلةٍ ؛ فالدَّواء الثَّاني .

« الدّواء الثَّاني : أن يتجرَّعَ شربةً من زيت الخروع كلَّ أسبوع . . . ويتوهَّم كلَّ مرَّة : أنه يتجرَّعُها من يد حبيبته ، فإنْ لم يشفِه هذا ، فالدَّواء الثالث .

« الدَّواء الثالث : أن يذهبَ فيبيتَ ليلةً في المقابر ، ثمَّ ينظر نظرةً في أيِّ المرأتين يريد أن يلقىٰ الله بها ، وبرضاها عنه ، وبثوابه فيها . وأيَّتهما هي موضعُ

ذلك عند الله تعالى ، فإن لم يُبصرْ رُشده بعد هذا ، فالدَّواء الرَّابع .

« الدَّواء الرابع : أن يخرجَ في (مظاهرةٍ) . . فإذا فقئَتْ له عينٌ ، أو كُسِرَت له يدٌ ، أو رِجْلٌ ، ثمَّ لم تحِلَّ حبيبتُه المشكلة بنفسها . . . فالدَّواء الخامس .

« الدَّواء الخامس : أن يصنعَ صنيعَ المبتلَى بالحشيش ، والكوكايين ، فيذهبَ ، فيُسلِّم نفسه إلى السِّجن ؛ ليأخذوا على يدهِ ، فينسَى هذا التَّرفَ العقليَّ ، ثمَّ ليعرفَ من أعمال السِّجن جِدَّ الحياة ، وَهزلها . فإنْ لم ينزِعْ عن جهله بعد ذلك ، فالدَّواء السَّادس .

« الدَّواء السَّادس : أنَّه كلما تحرك دَمُه ، وشاعت فيه حرارةُ الحبِّ لا يذهبُ إلى من يحبِّها ، ولا يتوخَّى ناحيتَها ، بل يذهب من فوْره إلى حَجَّام يحجمُه . . . ليُطفىءَ عنه الدَّمَ بإخراج الدَّم ، وهذه هي الطَّريقة ؛ الَّتي يصلح بها مجانين العشَّاق ، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار ؛ لعاشوا هم ، وانتحرَ الحبُّ .

قال « نابغة القرن العشرين » : « فإن بَطلت هذه الأشفية السِّتَّة ، وبقي الرَّجل جَمُوحاً ، لا يُرَدُّ عن هواه ؛ فلم يبق إلا الدَّواءُ السَّابع .

« الدَّواء السَّابع : أن يُضرَبَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصكُّ بها(١) واقعةً منه حيث تقع من رأسه ، وصَدره ، وظهره ، وأطرافِه ، حتى يَنْهشمَ عظمه ، وينقصف صُلبُه ؛ ويَنشدخَ رأسُه ، ويَتفرَّى جلده ، ثم تُطلى جراحُه وكسورُه بالأَطْلية ، والمراهم ، وتوضَع له الأضمِدة ، والعصائب ، ويُترك حتَّى يَبرأ على ذلك : أعرَج ، مُتخلِّعاً ، مبعثَرَ الخلق ، مكسورَ الأعلى والأسفل ، فإنَّ في ذلك شفاءَه التَّامَّ من داء الحبِّ إن شاء الله . . . » .

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ، ولم يصرف عنه غائلةَ الحبِّ ؟

قال : فإن لم يشفه ذلك فالدَّواءُ الثَّامن .

الدَّواء الثَّامن : أن يُعادَ عِلاجُه بالدَّواء السَّابع . . . . .

* * *

(١) « القناة » : هي العصا الغليظة التي يُقال لها « الشومة » . و« الصك » : خاصٌّ في ضرب الرأس ، لكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودةً في هذا العلاج ؛ فقد جاز استعمال الصَّكِّ في الجسم كلِّه ، كما رأيت . (ع) .